قيصر ...

قصة بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

افسحوا الطريق لقيصر ..
من ها هنا سيعبر موكبه ..
عما قليل ستهل عليكم طلعته ..
قيصر .. يا ظل الله في الارض ..
اصوات الرعية تهمهم من بعيد ..
والحاشية تحف بالعربة الامبراطورية ..

الموكب لا ريب قادم في الطريق . انا اذن سأبصره بعيني هاتين .. بل ربما استطعت ان اندس بين صفوف الجند العظام . وان اهتف مع الهاتفين . وامد يدي فالمس ـ اقول المس ! ـ العربة الامبراطورية المزينة بالورود ، المتوجة بالذهب وبالفضة . ومن يدري ؟ فلعلي مستطيع ان القته الى وجودي . ولعلي ان تواتيني الشجاعة فامد اليه يدي بشكواي . سيطرق قيصر العظيم برأسه ، وربما ابتسم ، وربما مال على اذني ليقول لي « انا لم انسك قط . انا لن انساك في يوم من الايام . » ولكن هل سأستطيع حقا ان انفذ من الستار العظيم الذي يطوقه بالرجال والسلاح ؟ . هل ساستطيع حقا ان اعبر السياج المتين الذي تصنعه الهيبة والجلال حول مجده الامبراطوري ؟!

وافرحتي بين العالمين !
من كان يصدق انني سأرى قيصر ؟
هل يمكن ان يتحقق الحلم في لحظة واحدة ؟
سيعبر الموكب بعد قليل .

يا الهي ! ماذا يحدث لو ان قلبي خانته الشجاعة ؟ سترهبه الابواق التي تزعق من حولي . ستخيفه مواكب الجنود تزحم المكان . سيتلفت حوله فيجد نفسه غريبا ، مفقودا ، عبر به الموكب ، وانفضت الجموع ، وخرس الضجيج .

جاري يصيح وحنجرته تكاد ان تنشق : الموكب في الطريق ..
وامرأة عجوز تداعب حفيدها وتشير بيدها النحيلة قائلة :
عما قليل يمر من امامنا قيصر ..
وطفلة تفتح عينيها وتهتف بصوتها اللطيف : اليست هذه هي العربة يا امي !
لكنني لا ارى على مدى البصر شيئا ..
ماذا يحدث لو لم يأت قيصر ؟

اليأس لن يتسرب الى نفسي . سوف ارى القيصر على اية حال . وسوف اهتف بملء صوتي : انا رجل من شعبك الامين يا مولاي! وسوف يضحك قيصر حتى يميل ظهره الى الوراء ، اما انا فاني سأجري وراء الركب لالحق بعربة قيصر . وسوف يبعدني الحراس عن موكبه برفق ومع ذلك فلن ابتعد حتى اعرفه بشكواي ، وابسط له حالي . سيقول لي في اخر الامر : اذهب الى دار الطعام والكساء : قل لهم لقد بعثني قيصر اليكم .

دار الطعام والكساء قريبة من هذا الشارع .

سأتوجه اليها بعد قليل ، بعد ان اكون قد رأيت الموكب وحادثت قيصر .

سأتقدم في غير وجل ولا خوف لاقول للامين على خزائن الطعام : هذا انا يا سيدي . ـ لا لن اقول له يا سيدي . السنا جميعا سواء ! ـ اتعرف من اين انا آت اليك ؟ سيفتح الامين فمه من الدهشة . ستتسع عيناه اتساعا كبيرا عندما اقول له في صوت لا تخونه الثقة : لقد بعثني قيصر اليك ! قال لي اذهب يا احب رعيتي الي .. اذهب الى الامين ليفتح لك خزائني فكل منها ما تشاء . اشبع بطنك التي هرأها الجوع . اكس جسدك الذي اكلته الرياح ، وهصرته امطار الشتاء . « سوف لا يصدقني الامين في اول الامر . وسوف يزمجر غاضبا ويأمر اتباعه ان اطردوا هذا الرجل من دار الطعام . ولكنه لن يعرف في سطوة كبريائه انني قد انتصرت عليه . نعم ! لقد بلغته شكواي . وماذا بوسعي ان افعل اكثر من هذا ؟ ..

انا لن ايأس كما قلت ! ففي يدي ورقة دفعت عليها رسم الضريبة . وسطرت عليها شكواي بدم القلب ونمقتها بالخط الجميل ، وحشرتها بعبارات المدح والثناء على قيصر العظيم . كيف تصل ورقتي الى يد قيصر ؟ قد تأخذني الحيرة او تذهب بلبي . ففر بعيد من هذا الحي سأجد قصر العدالة . حقا انني لم ادخل ابوابها من قبل ـ غير انني سأصعد سلالم المرمر ، وامضي الى الردهة الكبرى . سوف يسألني الحجاب :

ـ ماذا تريد ايها الرجل ؟ وسوف ارد عليهم في عزم ثابت :
ـ اريد ان التقي بقاضي القضاة .
ـ انه مشغول باقرار العدل في البلاد .
ـ ولكني اريد ان اسمعه شكواي .
ـ وهل نستطيع ان نعرف الرجل الذي تشكو منه ؟
ـ حسن ايها السادة . انه قيصر !

سيعجب الحجاب من امري . وسيمد احدهم يديه ليطردني بعيدا عن قصر العدالة . ولكني سأقنعه ان قيصر هو الذي بعثني . وسوف افلت من ايديهم لاجري في ردهات القصر باحثا عن قاعة المحاكمات . وسوف اضل في القصر ، حتى اجدها . هنالك اصرخ بملء صوتي : يا قاضي القضاة . يا قاضي القضاة . الا تسمع شكواي . وسيرفع القاضي وجهه الى الجريء الذي دنست قدماه قدس اقداس العدالة وسيقول لي : ممن تشكو ايها الرجل ؟ سوف اقول بلا ادنى خوف : انا اشكو قيصر ايها القاضي الجليل !

ماذا عسى ان يفعل القاضي ؟ اما ان يعطف على شكواي ، ويؤجر المحامين للدفاع عنها ـ فانا رجل فقير لا املك حق الدفاع عن نفسي ـ واما ان يثور ساخطا : ضعوه بين المتهمين : اما انا فلن اغضب او اثور . يكفيني انني اسمعت القاضي شكواي . وسواء علي ان اقف بين المظلومين او بين المذنبين . الم اوفق الى دخول قصر العدالة في اخر الامر ؟!

انا انتظر موكب قيصر . سوف ينحني علي ، ويقرب وجهه من اذني ، ويقول لي : ستجدني في القصر غدا .

ها هو القصر بلفته بعد ان تمزقت قدماي ، وغطى الغبار بشرتي السمراء . ها انا اتقدم من الحراس الاشداء . انهم يظللون جدران القصر بهيبتهم . ويتسامقون عن جانبيه كالاشجار العتيقة المتكبرة . سوف اقول لهم : لقد بعثني الامير الى هذا القصر . سيضحك الحراس بلا مراء . وسيتخذون مني اضحوكة لهم . وربما هجم احدهم علي فقبض علي بين ذراعيه كأنني دمية عاجزة . لكن هذا كله لن يخيفني . لن يضيرني ان انتظر يوما او يومين ، وان اقف عند البوابة المرمرية

شهرا او شهرين .

فسوف ابعد عن القصر وفي نفسي احسن الذكريات . السست قد عرفت الطريق اليه ؟ السست قد الفت الحراس ، وضاحكتهم،وحفظت ملامح وجوههم ؟ الم افلح ـ الى هذا كله ـ في ان اعطفهم على حالي ، وان اسرد عليهم حكايتي وتاريخي ؟ السست قد لمست يد الحارس اليست يد هذا الحارس ستلمس يد رئيسه الذي يفوقه قوة وبأسا وهذا الاخير .. من ذا يشك في انه سيسلم على كبير حراس قيصر ؟ .. اما كبير الحراس فانه يسلم على قيصرنفسه في كل يوم مرات .. افلا اكون بهذا قد لمست يد قيصر ؟!

ربما وجدتهم في المرة التالية يقولون لي : تفضل .. لقد اذن لك قيصر .. وهو ينتظرك على مضض في الردهة الكبرى !

سامضي في طريقي غير هياب .

ـ هل تسمح لي ايها الحارس المبجل .

ـ اراك رجلا من الشعب !

ـ اني لكذلك يا سيدي .

ـ اذن قد اخطأت الطريق .

ـ ولكن قيصر بنفسه هو الذي بعث الي يا سيدي .

ويفطن هذا الحارس الغبي الى خطأه حين يهرع الي حارس اخر اعلى منه مرتبة ليقول لي تفضل مكرما .. نحن ننتظرك من سنين وسنين .. السست انت .. (وهنا ينطق باسمي)

ـ نعم انا هو ياسيدي..

ـ ادخل .. ادخل .. ان قيصر العظيم مشتاق الى رؤياك !

واصعد سلالم الرخام الناصعة .. حريصا حتى لا تنزلق قدمي . وامر يدي لانعمها بملمس الاعمدة الملساء .. واسير في معبر طويل لا تكاد نهايته ان ترى ـ وحين ابلغ قاعة فسيحة عليها حراس متدثرون بسترة زرقاء ، تلمع فوق اكتافهم نجوم واقمار ذهبية براقة اسألهم : انبئوا قيصر ان رجلا من شعبه الامين قد جاء ..

ـ ولكن هذا مكان حاجب الوزير ..

فارد عليهم ساخطا : من قال لكم انني اريد مقابلة الوزير ..

فيجيب علي احدهم وهو يحاول ان يرضيني : اردنا ان نقول انه وزير قيصر ..

وانصرف عنهم لاواصل سيري . عما قريب سأجد قيصر .وسأمثل بين يديه . كيف يصدق اخوتي وصحابي انني مثلت بين يدي قيصر؟من كان يظن ان هذا سيحدث لرجل مثلي . وادور من قاعة الى قاعة،مبهورا بالسحر الذي يتخايل امام ناظري ، في الثريات ، والطنافس،والرسوم، والمرايا ، والرياش ، والتحف الغالية . ولكني سأمضي قدما حتى اجد قيصر . وسوف تشغلني عما ارى افكاري التي تضطرب في خاطري ، وخطابي المنمق الطويل الذي سألقيه بين يديه .

ويقفز امامي رجل طويل غرق جسده في ثوب رمادي يبدو وكأنه قد خرج من بين الجدران .. ليقول لي : اي شيطان جاء بك الى هنا؟..

فاقول له وشجاعتي لا تفارقني .. لقد بعث قيصر الي .

فيقول وهو يرفع حاجبيه من الدهشة : ولكن هذا الجناح مخصص لكبير وزراء قيصر .

فأساله في صوت رزين : واين اذن اجد قيصر ؟

ـ اذهب الى القاعة الكبرى.. وهناك فلتسأل كبير التشريفات .

واقلب الورقة التي كتبت فيها شكواي بين يدي . وحين افرغ من قراءتها ـ للمرة الواحدة بعد المائة ـ يعاودني الامل في لقاء قيصر . ولكني اصحو على اصوات تناديني من خلفي: ايها الرجل..ايها الرجل..

فالتفت لاجد جماعة من الحراس يتقدمون نحوي . واجفل لمرآهم، وتطرف عيناي اذ تقع على ملابسهم المزركشة بالالوان الحمراء والزرقاء ويقبض واحد منهم على ذراعي ليقول لي :

ـ انا نبحث عنك منذ ساعات

فاقول لهم : وانا ايضا ابحث عن قيصر ..

فيعتذر الي حارس طويل القامة في ادب رقيق : لقد اخطانا حين تركناك تدخل القصر ..

فانعلق بثيابهم وانا استنجد .. السست رجلا من الشعب !

ـ نعم . ولكنه يريد رجلا اخر !!

واعود معهم اشق ردهات القصر ، واعبر دروبه ، واجوز قاعاته ، واتفرج على بدائعه وكنوزه .. ويلاحظ الحراس ان رجلي اصابهما الوهن ، فانا اعرج بهما . وانني في حاجة الى الراحة بعد جهد المسير..

حتم علي ان اغادر القصر اولا ، ثم استريح ..

سوف ابتعد عن القصر وفي نفسي احسن الذكريات .

انا ما زلت في موقفي عل ى افريز هذا الشارع ..

ها قد انقضت ساعات الظهيرة ..

ولا بد لي من ان ارى قيصر ..

سمعت اناسا يهتفون وتبح اصواتهم . بعضهم يقول انه قد رأى الموكب وهو يعبر الحي القريب ، ولكن عاقته الجماهير المتدافعة عن مسيره .. والبعض الاخر يؤكد انه قد سمع الابواق على طول الطريق ، وهي تؤذن بقدوم قيصر . وفريق ثالث يقسم الايمان على انه شاهد العربة الامبراطورية وهي تتخطر في الطريق كالعروس الجميلة في ليلة الزفاف . ثم يعتذر عن تقصيره في الوصف قائلا : ان احكم حكمائنا ، واعز شعرائنا لن يستطيع ان يصف لكم روعة الموكب الامبراطوري . ونتحرق نحن شوقا الى رؤية هذا الموكب . وقد يحلم بعضنا بالذهب يتناثر من يدي قيصر على جانبي الطريق . وقد يطمع الجياع منا في طعام هنيء يأمر به قيصر ، والحفاة في احذية جديدة يوصي بصنعها قيصر .

لكن الشمس تغرب .. والشفق يصبغ بحمرته الدامية وجوهنا الشاحبة كشحوب انواره .

والاصوات التي كنا نخال انها نصم اذاننا اصبحت موجات من الصدى تنفمها الريح في الفضاء .

وفريق منا اضناهم التعب فانصرفوا الى بيوتهم وهم يعدون انفسهم برؤيته في زمن قريب ..

اما انا فاقلب بين يدي الورقة التي كتبت فيها شكواي ، ودفعت عليها رسم الضريبة ، واقول في نفسي : افلا يصدق الحلم فاجثو امام قيصر ، واقبل قدميه وابكي ، وابكي ؟ ..

يا ظل الله في الارض !

لم لم يعبر بي موكبك ؟

يا سيد البحار والارض!

انا انتظر موكبك ! ..

الن يأتي هذا اليوم في عمري ابدا ؟

انا لن اذهب الى بيتي كما فعل غيري . فسوف انتظر ، وانتظر الى صباح الغد ، وبعد الغد، وايام المستقبل كله ...

على هذا الجانب من الطريق ساسمر رجلي الضعيفتين حتى اسمع الابواق تنفخ من بعيد .. والرعية الامينة تهتف ، والعربة التي تجرها الجياد المطهمة تسير امامي .. عندئذ سامرق بين الزحام ، واشق السياج المتين الذي يطوق قيصر ، واقف بين يديه ، والقي عليه بشكواي. حقا ان شكواي طويلة مستفيضة .. ولكن قيصر لن يسأم منها .سيأمر بوقف الموكب . سيوصي باخماد كل الاصوات ليسمع صوتي . وبعد ان افرغ من شكواي التي ستستغرق اياما واياما سيميل على اذني ،ويسر الي بهذا السؤال : من انت ايها الرجل المسكين ؟ فارفع اليه عينين تملؤهما الدموع لاقول : انا رجل من شعبك الامين يا مولاي . فيميل على اذني للمرة الاخيرة ليقول لي في حنان عظيم :

يا اقرب الناس من قلبي . يا احب عندي من نفسي !

انتظر حتى اراك في موكبي التالي .

ولكن متى يمر اذن ؟ ومن اين ؟ من الشارع الاخر ؟ لا ! في مدينة اخرى ؟ لا ؟ في عالم اخر ؟

احقا انني لن اراه ابدا ؟!

القاهرة

عبد الغفار مكاوي